

هيئة عبد العزيز - جامعة المسيلة - الجزائر

الدرس النقدي الجديد وإشكالية الترويض

ملخص

تبحث هذه المداخلة عن أهم الإشكالات التي تعيق مسار وأفق الدرس النقدي الجديد في الجزائر وتطور مناهجه النقدية النسقية المستحدثة وتوجيهاتها وذلك في محاولة لتحليل ومقاربة الخطاب الروائي الجزائري المعاصر واستنطاقه واستقراءه قصد إسكناه خباياه، وهذا بواسطة المناهج السابقة وما تحمله من خصوصيات وإشكالات سواء في المنهج أم على صعيد النص الإبداعي ضمن إطار سيروية العملية النقدية.

Abstract

This paper discusses the most important problems that hinder the path and horizon of the new criticism curricula, the guidance of the critical lesson and its modernized textbooks in an attempt to approach the Algerian novel text and its extrapolations from the previous curricula, hence what these curricula contain of the specificities and problems it faces in the curriculum or in the creative text within the framework of the process of criticism.

مقدمة

تعتبر المناهج النقدية العصرية الحاصلة عنتمظهراتما بعدالحدثكوسائط تساهم في تحليل الإبداع الأدبي وقد عمدت هذه المناهج على ملازمة وتتبع النص الأدبي لغرض البحث عن مقصدية الكاتب واكتناه خبايا الخطاب، واستنطاق الظواهر الفنية داخله خاصة وأنها بذلك تتعامل مع ذات منتجة تتأثر بمجموعة العوامل

النفسية والاجتماعية ضمن حدود بيئة متميزة عن غيرها. وقد تبنت تلك المناهج مجموعة من نظريات وقواعد لغرض تحليل النص الأدبي عموما والخطاب الروائي بشكل خاص مبنية آلياته وتقنياته السردية، ومرتكزة على منظومة اصطلاحية ينهل الفعل النقدي من معينها، ويعتبرها دعائم انطلاق لخوض غمار التحليل للمحكي الروائي.

لذا نجد أن الدرس النقدي الجديد عمل على تكريس العملية النقدية للنصوص الإبداعية منتهجا أكثر من طريق نحو الموضوعية والعلمية في التعامل معها في بحث الناقد بواسطة الإجراءات والأدوات التابعة لمختلف المناهج النقدية النصانية المعاصرة كالأسلوبية والسيمائية والبنوية والتداولية وغيرها عند دلالات النص على حساب الناص باستخدام آليات التجريب التي تتوافق والنص المنقود المراد استنطاقه ومحاولة تحديد القراءة النقدية له.

وفي خط مواز استطاعت الرواية الجزائرية أنتتزع الاهتمام، لا من باب الشفقة والإنسانية فنجدها قد عبرت عن أيديولوجيتها بصورة صاخبة معلنة التميز، حاملة بين أسطرها معاناة المهمشين وقضايا المجتمع، الشيء الذي جعل الخطاب الروائي الجزائري الجديد خطاب ملغم وقابل للاستنباط في عمليتي البحث والنقد.

ولئن استباححت المناهج النقدية الجديدة أرض التخيلي الروائي الجزائري فذلك لم يمنعه من مواجهة إشكاليات وخصوصيات تعيق تقدم أفاقها ولعل ذلك راجع إلى ميوعة النص الجديد وتمازج أجناسه من جهة وإلى انغلاق الرواية على ذاتها ما جعلها تستعصي على الترويض وتجنح عن تطبيقات المناهج النقدية المعاصرة، وفي هذا المقام يدفعنا الالتباس السابق إلى التساؤل حول إهمال إشكالات التي تواجه الدرس النقدي الجديد أثناء محاولة تطبيقه على الخطاب الروائي الجزائري.

1. إشكالية الوعي بأصول المنهج

تهدف المناهج النقدية استكناه خبايا النص الإبداعي لذلك نجد أنالدرس النقدي الجديد قد اتجه إلى البحث في مضامين النص الادبي وخوض غماره، بمعزل عن الظروف البيئية للناصفي تيارمخالف للنقد السياقي الذي يعنى بالعوامل النفسية والاجتماعية وغيرها والتي كتب فيهاالنص لهذا نجد المناهج النقدية الجديدة

كالأسلوبية والتداولية والتفكيكية والبنوية والسميائية، والتي اصطلح عنها بالمناهج النصانية النسقية قد اهتمت بدراسة تجليات وتمظهرات النص وحده خارجا عن كل السياقات التي أدت إنشاءه .

لا يختلف اثنان على أن النقد العربي قد لجأ إلى استيراد المناهج فتميزت المقاربات النصية الاولى بشكل غير مرن يسمح بالتلقي من دون المناقشة، فكان تلقي المنهج في الثقافة العربية اشبه بالارتقاء في أحضان الغرب دونما ادراك الحقيقة إرهاباته وفلسفته المؤسسة له، حيث نجد أن المنهج قد تمحور عن مجموعة من الآراء الذوقية والذاتية إلى أن تحول إلى مجموعة من القوانين الإجرائية العلمية والموضوعية التي تسعى للبحث عن جماليات ما داخل النص، فولد ذلك الارتقاء للأخذ من دون الاعتبار للخلفيات نفورا عند المتلقي واغترابا وعزوبا عن دراسة وانتهاج المقاربات النقدية.

إن توافد الآراء الفكرية إلى النقد العربي عموما والنقد الجزائري بشكل خاص دون محاولة لتصفيته أو غريلة لهذه الروافد من أية شوائب فكرية يعكس انعدام الوعي لدى النقاد المحدثين الذين تحمسوا للانتهاك من الغرب من غير مراعاة لخصوصية النص العربي والجزائري خصوصا "وأبرز مظاهر الأزمة التي يتخبط فيها الخطاب النقدي المعاصر تعود فيما تعود إليه إلى الانفتاح اللامشروط الذي شهدته الدوائر الفكرية العربية على غيرها من الغرب، دون محاولة لتصفية هذا الوافد من شوائب الانتماء إلى تربته الأصيلة في تربة الثقافة العربية"(01).

نجد بذلك أن إشكالية تطبيق المناهج النقدية ناجمة عن غياب الاصول فالاعتماد على مكتسبات الأخذوالحماس الزائد نحو علمنة الأدب لم يشكل لنا الا معادلة لم تكن أبدا متوازنة ومتعادلة لأن "الإشكالية الحقيقة ليست في البحث عن خلفيات المناهج المعرفية فقط كونها تقوم على سند فلسفي قبل أن تكون مجرد إجراء عملي بل الإشكال هو كيفية تقديمها للقارئ ضمن نصوص إبداعية"(02).

يرى سعيد يقطين أنه "منذ بداية احتكاك العرب بالغرب على الصعيد الأدبي ونحن لا نأخذ من النظريات والاتجاهات المختلفة سوى نتائجها (...). وما فكرنا في استلهم الروح العلمية التي يشتغل بها اصحاب النظريات، إن السبيل يمكن أن يقودنا

في حال القيام به إلى التفكير في الأسباب العلمية (...) بناء على ما يقدمه النص الغربي من خصوصيات هي وليدة المجتمع الغربي" (03).

لقد أوقع انعدام الوعي النقدي الجزائري بأصول المنهج في إشكالية تتمثل في الانفتاح الا مشروط على هذا الوافد الجديد من التيارات النقدية، من حيث كون المناهج السابقة قائمة على إجراءات خصوصية ذات خلفية معرفية تعنى بالنص الروائي الغربي الذي تشتغل عنه، إذ أن إتيان النص الإبداعي بوسائل إجرائية قصد اكتناه خباياه يخضع بالضرورة لخصوصية النص وبيئة منشئه، لذلك فما يصلح كتطبيق على الرواية الأجنبية قد لا يصلح بالضرورة كتطبيق للنص الروائي الجزائري.

إن الفرق في الممارسة النقدية بين كل النقد الجزائري والنقد الغربي تكمن في ادراك "القضايا الشائكة التي كانت ولا تزال تحظى باهتمام الكثير من أهل الدراية في مجال البحث وهو اهتمام يعبر عن مدى القيمة الحقيقية المتزايدة التي أصبحت تعنى بها في مجال البحث العلمي بمختلف جوانبه ومستوياته" (04) فالأول أخذ النتائج وحاول تطويع النص الروائي فيها، أما الثاني فقد اخرج المنهج انطلاقاً من خلفيات محددة فيأخذ بذلك حيزاً دلالياً واستعمالياً بطبيعة علمية للإجراءات تسمح بمقاربة النص مقارنة تتبعية ممنهجة.

إن العناية بالمنهج وانتظار نتائجه ساهم في خلق أزمة في النقد الجزائري كان في أساسها عدم الوعي بماهية المنهج، فهم يرونه كأدوات إجرائية أو وسائل تتاح للناقد من أجل مقارنة النص الأدبي الذي يعتبرونه بمثابة القالب الذي يؤتى به فيوضع النص داخله بغرض استنطاقه وتجريبه، ويعد غياب الوعي بأصل المنهج وفلسفته الأولية ومحاولة تطويع النقاد النص ليلائمه أدت بالقارئ إلى الابتعاد عن المناهج متجنباً غموضها وانغلاقها.

2. إشكالية المنظومة الاصطلاحية

لقد أحدث توافد المصطلحات من النقد الغربي إشكالية لعلها من أكثر الصعوبات التي تمنع من توظيف المناهج النقدية الجديدة على الخطاب الروائي الجزائري، ومن جهة أخرى من أكثر ما يدخل القارئ في متاهات أثناء محاولته

لتحديد المنهج " فالمصطلح كالمناهج نجده قد أحدث إشكالية في النقد أثناء محاولة ضبطه أو تقديمه للمتلقى وبخاصة أن النقاد العرب غالبا ما يقدمون المصطلح من خلال نظراتهم الذاتية كاجتهاد خاص دون مرجع أو عودة للمصطلح الغربي" (05).

وما نلاحظه أثناء المحاولة لنقل المصطلح من بيئته الأصلية إلى بيئة أخرى مستقبلية بكل ما تحتويه من زخم فكري، يجعله هذا التثقل يتجرد من دلالاته التي اكتسبها في بيئته الأصلية الشيء الذي يخلق لنا أزمة مصطلحية لدى المشتغلين في حقل الدراسات النقدية فتختلف التفسيرات والتقديمات لذات المصطلح، ما أنتج تضاربا واختلافا عند النقاد والقراء على حد سواء، بانحياز كل طرف لمرجعياته التي ينتمي لها وهذا ما يعكس ذلك العجز في سيرورة الفعل النقدي لما كان الجانب النظري له يحمل قصورا يجع النتائج تتباين وتعدد.

نجد أن المصطلح الغربي الواحد يقدم بأكثر من مصطلح في النقد الجزائري ولعل ذلك راجع إلى رغبة كل طرف في فرض وسريان آرائه على حساب أطراف أخرى ويعتبر الأخير أحد الجوانب "فإن كان عبارة عن مصلح واحد محدد المفاهيم لدى الآخر، فإنه يصبح حين انتقاله للأنا عبارة عن مجموعة من الكلمات (06) تبعا لتوجه صاحب الممارسة.

إن تعدد المصطلحات في الخطاب النقدي الجزائري لم يكن خادما للخطاب النقدي كونه ساهم في تعسير الفهم أكثر من تيسيره، منتجا حالة من الخلط في التلقي حيث يؤخذ للمصطلح الواحد عدة تفرعات، وهكذا نجد أن الأزمة تتضاعف فغياب الوعي بأصول المنهج وعده مجرد أدوات إجرائية بالإضافة إلى غموض وتشعب مصطلحاته يخلق للقارئ صعوبات في تحصيل الدلالة لأنه وإن لم يخل المنطلق من الشوائب فلا يتوقع من النتيجة الاستقرار والثبات أو الأكثر عدم تحققها.

بعض النقاد يرون أن كثرة المصطلحات في أي ممارسة نقدية أو عج الملاحق في نهايتها هو دليل الحداثة والحقيقة أن "تعدد المصطلحات في الفعل النقدي ليس دليلا على جودة العمل فالمسألة ليست بكثرة المصطلحات بل بقدرة الناقد على توظيفها توظيفا صحيحا في الموضوع والمنهج والرؤيا النقدية" (07).

ومع تتبع مقولات الحداثة وما بعد الحداثة سعيا وراء التجديد ظهرت في نصوص النقد والدراسات الأدبية، مصطلحات غرة وجديدة أخذت بمرور الزمن تتراكم دون أن تلفت انتباه السواد الاعظم من النقاد والباحثين، أو من المؤسسات العلمية اللغوية حتى أصبحت ظاهرة استخدام المصطلحات في النصوص أو في الأوساط الأدبية دون العناية بالبحث عن مضمونها أو الإطار الذي نشأت فيه أو الذي تم النقل اليه(08).

فالمصطلحات الأجنبية هي وليدة فكر فلسفي ومتطورة عنه وأي محاولة لإسقاطها في سياق آخر أو إخراجها عن دلالتها تسقط النص في الغموض والخلط لذا وجب على النقاد الحذر حتى لا يتسنى لهم السقوط في فخ التخلي عن الارصدة المرتبطة بالهوية التي وبتمهيشها شكلت دائرة خطر على الانتماء العربي، بداية من انسلاخ خطابه النقدي عن اصوله التراثية وارتقاءه في احضان هوية تختلف عنه من حيث المنطلق والخصوصية.

إن إشكالية التعدد الاصطلاحي هي من إحدى أهم وأعتى إشكالات توظيف المناهج النقدية على النصوص الروائية الجزائرية خاصة وأنها تمس الجانب التثقيري والذي لا تحدث استقامة المقاربة النقدي لأي منهج إلا بسلامته وانعدام التناقضات فيه، وقد أصبحت هذه الإشكالية تشير إلى حجم الأزمة التي يتخبط فيها الخطاب النقد الجزائري والعربي وهذا يدل على "مدى تأزم هذا الخطاب ومد عجز الناقد على تحقيق أصالته وتمايظه بتأسيس مشروع نقدي يقوم على خصوصية الحضارة العربية متبينا مشروع ثقافة الاختلاف مع الآخر حتى يتملص من تبعيته"(09).

3. اشكالية الإجراء - الممارسة النقدية

نجد أن الرواية الجزائرية قد نضجت في فترة السبعينات بإنتاج جيل من الأدباء يكتبون الرواية باللغة العربية، و قد استطاعوا أن يكتبوا رواية ترتقي وتتسامى للعالمية فوق كل الظروف السياسية الصعبة المحيطة بهم، لكن الولادة في النقد كانت عسيرة لأن نضج العمل النقدي يتطلب معرفة علمية وفلسفية ومهارات معرفية متنوعة، كما يتطلب مرونة في التعامل مع النصوص الادبية ولا تحدث هذه المرونة إلا عن طريق الممارسة الطويلة المنتظمة، ونجد انطلاقا مما سبق أن تطور التجربة

النقدية لا يمكن حدوثه إلا بسلامة الفعل النقدي من العيوب في التأصيل النقدي ومنهجية المنظومة الاصطلاحية.

إن محاولة التوثيق بين النتيجة المحصل عنها وآليات المنهج المستخدم أدى إلى ظهور الممارسات النقدية بشكل شاحب غير واضح المعالم، فقد أصبح هم النقاد المحدثين استعراض اكبر عدد من المصطلحات الأجنبية فيبدو بها النص الروائي كمسرح للتجريب بفقدان قيمه الجمالية، الشيء الذي أدى إلى انسلاخ النقد عن أصوله فوقعت بذلك حالة من الانفصام بين الفعل النقدي والعمل الابداعي المنتج.

يواجه النقد إشكالية تعدد المفاهيم وأساليب الممارسات و الإجراءات النقدية ومن ثمة تتباين الخلفيات المنهجية والانطلاقات النظرية، وقد تؤدي هذه الاضطرابات بشكل حتمي إلى حجب الرؤية الصحيحة عن ذهن المتلقي لذا وجب على الناقد سلامة الذوق وأصالة الأداء النقدي.

وإن تشابك أحيانا المناهج واحتدم النقاش تحيزا أو دفاعا عن طرف دون الآخر حتى تتأكد المنهجيات وتتأصل في التطبيق وفق آلية واضحة تسمح لكل منهج باستيعاب الظاهرة الإبداعية والنص الروائي.

لقد وقع النقد الجزائري وطرائق ممارسته تحت هيمنة النقد الأجنبي حتى نجد أن بعض المناهج قد سقطت في العجز، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة الخطاب الروائي وخصوصيته الثقافية والحضارية وعدم مناسبة كل ما هو غربي له، وكف حركته الإبداعية لذا تقع مسؤولية كبيرة على اكتاف النقاد المحدثين فنحن نتوجه إليهم طالبين منهم دراسة النظريات والمناهج الحديثة ومصطلحاتها وإقامة الأبحاث حولها وشرحها للقارئ قبل تطبيقها بحماسة دافعها ذلك التقديس الا منطقي لكبار المثقفين" (10).

الخاتمة

إن تتبع مسار الفعل النقدي في الجزائري وبالرغم من قلته يجعلنا نقف على أهم الإشكالات التي تشهدها المناهج النقدية الناتجة عن مدارسه الجديدة النسقية المستحدثة ما يعيق توظيفها وتقدم إجراءاتها على الخطاب الروائي الجزائري الجديد ومن بين ابرز الإشكالات نجد إشكالية الوعي بأصول المنهج وخلفياته التي عملت

على انتاجه وتطوراته، وإشكالية ثانية تمثلت في الحجم الهائل للتراكيمات المصطلحية من دون العمل على فرزها أو تصنيفها خاصة وأنها تتخبط ما بين مؤيد لها على أساس أنها من مظاهر الحداثة وبين رافض لها داعيا للتمسك بالحضارة والثقافة المحلية أما الإشكالية الأخيرة التي تناولتها هذه المداخلة هي إشكالية تطبيق هذه المناهج على الخطاب الروائي الجزائري مع مراعاة خصوصية الأخير وصعوبة ترويضه.

هذا ونجد من خلال تحليلنا السابق مجموعة من النتائج أهمها:

1. إن المناهج النصانية المستخدمة هي مناهج سلطوية تحاول تطويع الخطاب الروائي بما يناسبها وهي تسهم من جهة أخرى في تعميق فهم القارئ.
 2. على الباحث المتحكم التسلح بمصطلحات المنهج قبل مقارنة النص وإدراكه أن المناهج النقدية الغربية وإن فهمت أحسن فهم لا يمكن تطبيقها بصورة مكتملة على الأدب الجزائري.
 3. إذا كانت اتجاهات النقد العربي تتفاوت في محاكاة نموذج النقد الغربي بكل صورها النظرية اقترابا وابتعادا فإنها تظل متأثرة متأثر يأخذ شكل التبني الجاهز.
 4. كلما ابتكر الغرب مصطلحا جديدا أو نظرية مستحدثة نجد أن البعض يطفق إلى التنصر لها ممارسين لتلك التبعية بلذة مغرية.
- وفي الأخير نرجو أن يكون هذا البحث بمثابة فاتحة لمزيد من البحوث والاسئلة في سبيل الارتقاء بالنقد الجزائري بصفة خاصة والأدب العربي عموما.

الهوامش

01. عبد الغني بارة : إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر. مقاربة حوارية في الأصول المعرفية. الهيئة المصرية للكتاب. 2005. دط. ص135.
02. المرجع نفسه: ص133.
03. سعيد يقطين: الأدب والمؤسسة والسلطة. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب. 2002. ط1. ص69.
04. إبراهيم أحمد ملحم: الخطاب النقدي وقراءة التراث. نحو قراءة تكاملية. عالم الكتب الحديث. إربد عمان. 2007. ط1. ص10.
05. زبيدة القاضي: النقد العربي المعاصر من النسقية إلى الإبداع. تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر. عالم الكتب الحديث. 2008. ط1. ص67.
06. سمير سعيد حجازي: إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر. دار طيبة للنشر والتوزيع. القاهرة. 2005. دط. ص6.
07. زبيدة القاضي: مرجع سابق. ص68.
08. ينظر: عبد العزيز حمودة: الخروج من التيه. دراسة في سلطة النص. عالم المعرفة. الكويت. 2008. ص8.
09. المرجع نفسه: ص9.
10. عبد الغني بارة: مرجع سابق. ص141.